

في العصر الإسلامي

بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى العرب بدين جديد ، قوامه الإيمان بالله واحد وسع علمه كل شيء وسيطرت قدرته على السموات والأرض إله رحيم عظيم المغفرة ، والإيمان كذلك برسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وما يتصل به من ثواب وعقاب ونعيم وعذاب ، مع أداء فروض دينية هي الصلاة والصيام والزكاة والحج ، ومع التحلي بمثالية خلقية كريمة تقوم على نبذ الفواحش والبغى والعدوان واجتناب الأخلاق الذميمة مثل البغى والنميمة والتجسس ، ومع طائفة من النظم الاقتصادية والاجتماعية تحيل الأمة الإسلامية إلى أمة متعاونة على الخير والبر والتقوى ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ولا يعيش فيها شخص لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضاً للجماعة ، بحيث إذا كان ثرياً رَدَّ بعض ماله على الفقراء وعلى الصالح العام للأمة . وبمجرد أن دعا الرسول عليه السلام قريشاً إلى هذا الدين الحنيف أخذت تسخر منه وتضطهده هو وأتباعه الذين آمنوا برسالته ، فنصح لأتباعه أولئك كثير منهم أن يهاجروا إلى الحبشة ، حتى لا تفتنهم قريش عن دينهم . ولما يش عليه السلام من قريش أخذ يعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج ، وآمن به بعض الحجاج من أهل المدينة من الأنصار . وفي الموسم التالي ازداد عدد من آمن به منهم ، وبايعوه على نشر الإسلام والدفاع عنه بالأموال والمهج والأرواح : وألحوا عليه أن يهاجر إليهم هو وأصحابه ليحموهم . ولبي دعوة الكريمة فأمر أصحابه بالهجرة إليهم ، ثم هاجر مع أبي بكر الصديق ، ودقت البشائر في المدينة بقدمه ، واستقبلوه استقبالا عظيماً . وأخذ يُرسى دعائم الإسلام ، وقريش تتعقبه وتتسقط أخباره وتستعد لنزله مع أصحابه . ويصبح جهادها وجهاد أعداء الإسلام الكفار من حوله فريضة مكتوبة ، وتنزل آيات كثيرة في ثواب المجاهدين وما ينتظرهم من النعيم المقيم ، ويحرض الرسول على الجهاد ، ويتحول أصحابه من المهاجرين والأنصار إلى ما يشبه جَمَراً ملتهباً ، يريدون أن يأتوا على قريش ويقهروها قهراً .

وتجمع قريش جموعها ، وتنشب غزوة بدر ، وتلتقى الفئة الكافرة الكثيرة في العدد والعدَّة بالفئة المؤمنة القليلة ، ويحرض الرسول عليه السلام أصحابه قائلاً : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » فقال عمير بن الحمام الأنصاري وفي يده تمرات يأكلهن بسخٍ بسخٍ ! (عجبا عجبا) فما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ، ثم ألقى التمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم ، فاتكأ بهم فتكأ ذريعاً ، حتى استشهد ، وهو يقول :

رَكَضاً إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِ زَادٍ إِلَّا التُّقَى وَعَمَلِ المَعَادِ
وَالصَّبْرِ فِي اللَّهِ عَلَى الجِهَادِ وَكُلُّ زَادٍ عُرْضَةٌ النَّفَادِ
غَيْرُ التُّقَى وَالْبِرِّ وَالرَّشَادِ

وتحوّل كل شخص في أصحاب رسول الله إلى ما يشبه عمير بن الحمام ، فهو يقاتل الفئة الكثيرة ويستبسل ، طاعناً بسيفه في صدور صناديد قريش ، داقاً برمحه في نحورهم . حتى ولوا الأدبار ، مخلفين وراءهم مائة وأربعين من ساداتهم وشجعانهم بين قتيل وأسير ، غير الغنائم الكثيرة التي غنمها المسلمون . ومنذ هذه الغزوة حتى فتّح مكة يقف شعراء قريش مع قومهم مدافعين عن الوثنية والشرك بالله ، بينما يقف شعراء المدينة من أمثال حسان بن ثابت مع الرسول مدافعين عن الدين الحنيف ومهددين متوعدين قريشاً بغزوات لا تبتغي منها ولا تذر . وواضح أن الشعر في هذه الفترة كان تعبيراً جماعياً في مكة والمدينة ، فالشاعر يصدر فيه عن جماعته ومشاعرها . وأخذ بعض الشعراء منذ هذا التاريخ ينظمون أشعاراً يستوحون فيها آى الذكر الحكيم ، على نحو ما هو معروف عن لبيد صاحب البيت المشهور :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ

وله وراء هذا البيت أشعار دينية كثيرة يستلهم فيها -- كما قلنا -- الآيات القرآنية . ومثله في هذا الاتجاه التابعة الجعدي . وهما في واقع الأمر إنما يتغنيان بمشاعر المسلمين الروحية من حولهما ، مشاعر الشعب كله ، فقد دخل العرب جميعاً في دين الله . ولم يكن الشعر الديني وشعر الجهاد في سبيل الله وحدهما

الشعر الذى يعبر عن روح الجماعة وانطباعاتها الشعبية ، فتحى المديح حين يمدح حسان بن ثابت أبا بكر الصديق ، مصوراً فيه الرجل المسلم المثالى الكامل إنما يعبر عن أفكار الجماعة ، ومدىحه له بذلك مديح جماعى . وبالمثل رثاء الشماخ بن ضرار أو أخيه لعمر بن الخطاب حين امتدت إليه يد أبى لؤلؤة الجوسى الآثم فى صلاة الصبح بطعنة مسمومة إذ يقول :

عليك سلامٌ من إمامٍ وباركتُ يدُ الله فى ذاك الأديم الممزقِ
فمن يَسْعَ أو يركبُ جناحَيَّ نعامٍ ليدرك ما قدّمتَ بالأمس يُسبِقِ

والبيتان يعبران عن رأى الجماعة الإسلامية فى عمر لا فى عصره فحسب ، بل فى كل العصور ، إذ أقام خلافته وحكومته على موازين عدل ، لم تتح لخليفة من بعده ، موازين شديدة الحساسية ، لم يستطع حاكم بعده أن يستخدمها استخداهم الرائع دون تسلط ودون عنف ، كما جعل العدالة تستقر وتصبح بمأمن من كل بغى وكل عبث وكل طغيان .

وبهاجر العرب منذ عصر أبى بكر هجرتهم الكبرى إلى الفتوح الإسلامية وهم يدوون بالقرآن الكريم دوى النحل ، وما نكاد نفتح كتاباً يصف فتوحهم من الكتب التاريخية القديمة حتى نجد الأشعار تتطاير مع كل معركة على لسان كل جندى مجاهد فى سبيل الله ، فهو يسل سيفه كما يسل لسانه بالبيتين والأبيات يستثير نفسه ومن حوله متغنياً ببسالته وجهاده طلباً للفوز فى الآجلة ، وحتى تكون كلمة الله هى العليا . وينظم المجاهدون أشعاراً لا تكاد تحصى فى جميع الميادين شرقاً وشمالاً وغرباً : فى العراق وإيران وفى الشام وفى مصر . وتبقى منها بقايا ، تدل على الطوايح الشعبية فيها سواء من حيث صياغتها أو من حيث ناظموها ومن نسبت إليهم ، أما من حيث الصياغة فقلما يعنى ناظموها بتجويدها وتحبيرها لسبب طبيعى ، وهى أنها ثمرة اللمحة الخاطفة السريعة ، لمحة استلال السيف ومنازلة العدو ، ولذلك كان الشاعر فيها لا ينقح لفظاً ، ولا يعنى بالتماس صيغة معينة أو وزن معين ، فإنه مشغول عن ذلك كله بالهجوم على العدو ، وهو يلتقى بالبيتين أو الأبيات فى سرعة دون محاولة لتفتيح أو ما يشبه التفتيح ،

وكانها نبال يصوبها إلى الأعداء مسرعاً ، ولذلك كانت تشيع فيها البساطة ، فلا تكلف ولا محاولة لتكلف ، إذ الجاهد في سبيل الله مشغول عن ذلك كله بمنازلة أعداء الله وطعنهم الطعنات المصمية . وأما من حيث الناظمون ومن نسبت إليهم فإن جمهورهم من عامة العرب ، ولا نكاد نظفر بينهم بشاعر نابه إلا في الحين بعد الحين ، أما الجمهور فهم شعراء عاديون لم يكونوا ينظمون الشعر ولا عرفوا به قبل الفتوح ، ولذلك أكثرهم مجهولون لنا ، لا نكاد نعرف عنهم سوى أسمائهم التي تذكرها كتب الفتوح ، وكأنها هي التي ألهمتهم الشعر وجعلتهم ينطقون به لأول مرة ، وهو لذلك شعر عارض في حياتهم ، وهو لذلك أيضاً شعر شعبي من إنتاج العامة في الأمة .

وكتاب تاريخ الطبرى يعرض أطرافاً كثيرة من هذا الشعر في أثناء عرضه لمعارك الفتوح . ونقف قليلاً إزاء معركة القادسية في جنوبي العراق التي فُتحت بعدها الأبواب إلى إيران ولم تقم للفرس قائمة . وقد سبقتها معارك صغرى في أغواث وغير أغواث . وكان يقرأ قراء مختلفون مع كل هجوم آيات الجهاد في القرآن الكريم ، حتى إذا فرغ القراء كبر القائد ، وكبر الذين يلونه تكبيرة ، وكبر الناس ، ثم يتحركون للهجوم ، ويثنى القائد التكبير فيستم الناس حركتهم ، ويثلث التكبير فيبرز أهل النجدات وينشب القتال . ويذكر الطبرى أنه خرج من الصفوف على إثر ذلك في يوم أغواث غالب بن عبد الله الأسدى ، وهو ينشد :

قد علمتُ واردةَ المسالِحِ ذات اللبَّانِ والبَنانِ الواضِحِ
أنى سِمامُ البطلِ المُشايِحِ وفارجُ الأمرِ المهمِّ الفادِحِ

والمسالِح : جمع مسلحة ، وهى الثغر . واللبان : الصدر . والمشايح : المقاتل . وخرج إليه هرمرز أحد أمراء الفرس وكان متوجاً ، فأسره غالب ، وأسلمه إلى القائد سعد بن أبي وقاص ، وانصرف إلى مطاردة الفرس والقتال . وأبلى القعقاع ابن عمرو التميمي بلاء حسناً في هذه المعركة ، ويقال إنه حمل فيها ثلاثين حملة ، وفي كل حملة يقتل في الفرس ويفتك بهم ، وكان في أثناء ذلك يرتجز :

أزْعَجهم عمداً بها إزعاجاً أظعن طعناً صائباً نَجَّاجاً
أرجو به من جنَّة أفواجاً

والشجاع : السائل بالدماء المنهمة . وكلمة أفواجا قلقمة في مكانها . ولكنها السرعة في إلقاء الكلام ونظمه في أثناء الحرب . وكان حينئذ عشرة إخوة من بني كاهل بن أسد ، يقال لهم بنو حرب : يشتركون في المعركة . فجعل أحدهم يرتجز مخاطباً أخاه عِفَاقاً بقوله :

أنا ابنُ حَرْبٍ ومعى مِخْرَاقٍ أضربهم بصارمِ رَقَسْرَاقٍ
إذ جاشتِ النفسُ على التَّرَاقِ صَبْرًا عِفَاقُ إنه الفِراقُ

والمِخْرَاقُ : السيف أو أداة الحرب . والصارم : السيف القاطع . والإقواء في البيت الثاني واضح ، فقد خالف الراجز بين حركتي الروي في البيتين بحكم السرعة في الارتجاز والإنشاد . وكل هؤلاء شعراء اللحظات الحربية في معارك الفتوح ، لم يعرفوا بالشعر ونظمه قبلها ، وهم لذلك مجهولون لنا أو كالمجهولين . وحتى الطبري ورواته لم يهتموا بذكر اسم الشاعر ابن حرب ، فحسبه أنه من عامة الجند ، وهو ليس من أصحاب الصناعة الشعرية ، إنما هو رجز سريع يفد على خاطره فينطقه دون تعمل لفن أو ما يشبه الفن ، وهو لذلك يعد عملاً شعبيّاً من أعمال الجماعة العربية الكبيرة المجاهدة في سبيل الله . ولعله من أجل ذلك نجد الرواة يختلفون في نسبة كثير من أشعار الفتوح إلى أصحابها فهم ينسبونها إلى هذا الجندي أو ذاك من المجاهدين ، وكأنما عَزَّتْ عليهم نسبتها الحقيقية ، أو قل كأنما شعروا أنها من عمل الفاتحين جميعاً ، فلم تهتمهم نسبتها إلى هذا أو ذاك منهم . ونراهم ينشدون أشعاراً كثيرة دون أن يعنوا بذكر أسماء أصحابها ، مكتفين بمثل : « وقال بعض الشعراء » أو « وقال شاعر في ذلك » . . . وتهاوى الجيش الفارسي تحت أقدام العرب في معركة القادسية ، وولّى الفرس الأدبار مخلفين وراءهم ثلاثين ألف قتيل غير آلاف الأسرى وغير الغنائم الوفيرة من السلاح وغير السلاح . وكانت الجزيرة العربية جميعها تنتظر أخبار هذه المعركة ، حتى يقال إن الرجل كان إذا عُرض عليه أمر قال لا أنظر فيه حتى أرى ما يكون من معركة القادسية . ولما زُفَّتْ إلى الجزيرة بشرى النصر أخذ الرجال والنساء يتغنون به ، وكل قبيلة تغنى ببلاء أبنائها ، تغنى النَّخَعُ وغيرها من القبائل اليمنية وتيم وغيرها من

القبائل المضرية . وشاعت حينئذ مقطوعتان كانتا تغنيان وتنشدان على كل لسان دون أن يعرف الناس مَنْ نظمهما ، أما الأولى فكانت تُغنى باليمن مشيدة ببطولة النخع في المعركة ، ومنها :

فحيثك عنى عُصْبَةٌ نَخَعِيَّةٌ حِسَانُ الوجوه آمنوا بمحمدٍ
أقاموا لكسرى يضرِبون جنودَه بكل رَفِيقِ الشُّفْرَتَيْنِ مَهْنَدٍ

وأما الثانية فكانت تغنى باليمامة مشيدة ببني تميم وبلاتهم في معركة ، القادسية على هذا النمط :

وجدنا الأكثرين ببني تميمٍ غداة الرُّوعِ أَصْبَرَهُم رجالا
بحورٌ للأكاسر من رجالٍ كأشدِّ الغاب تحسبهم جبالا
تركن لهم بقادسٍ عِزٌّ فخرٍ وبالحيفين أياما طوالا

ويعقب الطبرى على المقطوعتين بقوله : « وسُمع بنحو ذلك في بلاد العرب » . وكان أغاني كثيرة تمجد بسالة المجاهدين في القادسية ذاعت في الجزيرة وشاعت على كل لسان حينئذ دون أن يُعرف ناظموها : أغان حماسية كانت تتجاوب بها الجيوش الفاتحة وتسرى سريان البرق منها إلى الجزيرة ، وكأنما غدت تشبه أمثال الشعب ، فناظمها مجهول لأنه من أبناء العامة ، وهم قلما اهتموا بأن ينسبوا إليهم فضلا في شعر أو غير شعر ، لأنهم آخرون من يفكر في نسبة فضل إلى نفوسهم :

وليس هذا كل ما يلاحظ في شعر الفتوح ، فإنه يلاحظ أن كثيراً منه كان ينظم من بحر الرجز ، لأنه أسهل بحور الشعر ، ومعروف أنه أكثرها قابلية للتجزئة والتعديل ، وكان كثير الدوران في حذاء العرب من قديم وفي مبارزة الأقران في الحروب ، فكان طبيعياً أن يكثر جريانه على ألسنة الجنود المحاربين في مقطوعاتهم القصيرة . وهو بدون ريب يؤكد الطوايع الشعبية لهذه المقطوعات لسهولة لغتها ويسرها ، فما هي إلا أن يسلم الجندي المحارب سيفه للقتال حتى تفد على خاطره شطور من الرجز يقذف الشعر وطوايع

بها دون معاناة أو مكابدة ، كما يقذف بسهمه أو يضرب بسيفه ورمحه في عجلة دون رَيْث أو إبطاء .

وعلى هذا النحو أنتجت الفتوح الإسلامية شعراً امتاز بطوايع شعبية كثيرة ، وقل ذلك نفسه في أشعار موقعة صِفِّين مما رواه نصر بن مزاحم ، وكذلك فيما رواه الطبري من أشعار في حروب العرب مع الترك في أواسط آسيا طوال العصر الأموي ، فقد كانت تجرى على كل لسان أشعار كثيرة في كل معركة ، ولم يكن الشعراء يعاودون النظر في أشعارهم ولا كانوا ينقحونها أو يهذبونها ، إذ كانت عامة الجنود هم الذين ينظمونها غير مهتمين بتدقيق في معنى أو في لفظ أو في وزن أو في قافية ، أشعار هي بنت اللحظة العاجلة ، نُظمت في لغة يسيرة دون احتفال بتنقيح أو صقل أو ما يشبه الصقل والتنقيح .

وإذا مضينا في العصر الأموي وجدنا الأحزاب السياسية تنشأ ، ووجدنا لكل حزب شعراء الذين ينحازون إليه ويدعون له ويدافعون عنه باليد واللسان ، فللحزب الزبيرى شعراؤه وفي مقدمتهم ابن قيس الرُقَيْيَات ، وللحزب الشيعي شعراؤه وفي مقدمتهم الكُمَيْت ، وللحزب الخوارج شعراؤه الكثيرون أيضاً وفي مقدمتهم قَطْرِيّ بن الفُجاءة وزوجته أم حكيم . وانحاز الأخطل والفرزدق وجريز إلى بني أمية . وأخذ كل هؤلاء وأضربهم يحامون عن أحزابهم ويعنون بالدعاية لها . وكانت القضية التي انقسم الشعراء والناس من حولها أحزاباً هي قضية العدل الذي لا تصلح حياة الرعية بدونه ، وأى الأحزاب يمكن أن يحتمقه للأمة . أما الحزب الزبيرى الذي تكوّن بمجرد موت معاوية بزعامة عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب واليه على العراق فكان يرى أن يُردّ الأمر إلى قريش بالحجاز . حتى يعود الحكم كما كان في عهد الخلفاء الراشدين العدول . فلا يستأثر به بنو أمية في دمشق وأنصارهم هناك من عرب الشام اليمينيّين الذين أصبح لهم كل السلطان وتحولت إلى حجورهم أموال الأمة ، وغدوا يتحكمون في رقاب الناس ، فإذا هم يستبيحون المدينة ثلاثة أيام في موقعة الحرّة لعهد يزيد بن معاوية ، وإذا هم يسفكون دم الحسين الطاهر ودماء أسرته في الطَّفِّ ب كربلاء ، وآن أن يعود الأمر إلى نصابه وأن

يكون مركز الخلافة في الحجاز وأن يتولاها عبد الله بن الزبير الخليفة العائد بمكة ، وإلى ذلك يشير ابن قيس الرقيات في مديحه لمصعب قائلاً :

حَبَدَ الْعَيْشُ حِينَ قَوَى جَمِيعٌ لَمْ تَفْرُقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ
إِنَّمَا مَصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ وَتَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلْمَاءُ
كَيْفَ نَوَّمِي عَلَى الْفِرَاشِ وَلَمَّا تَشْمَلُ الشَّامَ غَارَةٌ شَعْوَاءُ

وهو يأسى للمصير الذي صارت إليه قريش ، فقد تفرقت شيعاً وبُلْدَاناً حتى طمع فيها كثير من الطامعين ، ويمدح مصعباً بأنه قبس من الله ، ليؤكد حقه وحق أخيه في الخلافة والحكم ، ويتوعد الشام بحرب ساحقة تمحق الأمويين وأنصارهم من كلب والقبائل اليمنية محققاً . ولم يكن مثل هذه الأبيات لابن قيس الرقيات يشيع بين الحزب الزبيرى وحده ، بل كان يتطايير منه شرر كثير إلى دمشق والحزب الأموى ، فيملاً عبد الملك بن مروان حقداً عليه وضعفينة . وعرف ذلك ابن قيس الرقيات ، فلما قضى عبد الملك على عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب ودانت له العراق والحجاز اختنى ابن قيس خوفاً وإشفاقاً على نفسه أن ينتقم منه ويقتله ، وظل محتفياً عاماً كما يقول الرواة ، وأحدٌ لا يستطيع أن يطلب له العفو من عبد الملك لأن ذنبه في التآليب عليه كان عظيماً ، إذ كان لسان الحزب الزبيرى وأكبر دعااته . ومازال محتفياً حتى شفّع له عبد الله بن جعفر بن أبي طالب كبير الهاشميين في المدينة ، ويقال بل راسل عبد العزيز ابن مروان كى يشفع له عند أخيه عبد الملك ، فأرسل إلى ابنته « أم البنين » زوجة الوليد بن عبد الملك ، أن تشفع فيه ، وكان عمها لا يردّها لها طلباً ، وقُبِلت شفاعتها . ومثّل بين يدي عبد الملك معتدراً ، فأخذ يعاتبه على مداخمه لمصعب منشداً منها أبياتاً . وفي ذلك ما يدل على مدى تأثير شعر ابن قيس الرقيات ، حتى ليحتمل عليه عبد الملك كل هذا الحنق الشديد . وكأنما كانت حناجر الشعب ترتفع بأشعار ابن قيس الرقيات حتى تصل إلى سمع عبد الملك ، فيحتلّ عليه غيظاً وموجدة .

وكان الشيعة يرون أن تُردَّ الخلافة إلى آل البيت حتى يحقّموا العدل الذى طال انتظاره على الرعية ونحوها عنها الظلم الذى انتشر فى كل مكان ، وكانوا يرون

الهاشميين أحقَّ الناس بها لأنها ميراثهم عن الرسول عليه السلام، ويرونها من حق أبناء علي بن أبي طالب خاصة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى بها - في رأيهم - إلى علي بن أبي طالب حين نزل معه ومع الصحابة على غدير خم بين مكة والمدينة ، إذ قال له : إنك مني بمنزلة هرون من موسى . وفي ذلك يقول الكُمَيْتُ :

ويومَ الدَّوْحِ دَوَّحَ غَدِيرِ خُمٍّ أَبَانَ لَهُ الْوَالِيَةَ لَوْ أُطِيعَا

ويُبدئُ الكُميتُ ويُعيدُ في أن الإمام الشيعي - وكان يدعوا لزيد بن علي ابن الحسين - يتميز بالكرم والشجاعة والزدد والعلم ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يتميز أيضاً بالعدل الذي لا تستقيم حياة الناس ولا تطيب بدونه ، إذ يصبحون سواسية في الحقوق وفي مواجهة الحياة والاستمتاع بما فيها من نعم ، بحيث لا يستأثر أحد بشيء دون سواه . ويقارن الكُميت دائماً بين إمامة زيد ابن علي وإمامة غيره من خلفاء بني أمية ، فيصفهم بالظلم وأنهم يسوسون الرعية سياسة جائرة ، وكأن الرعية غنم لهم يجرّون أصوافها ويسيعون ألبانها ويأكلون لحومها لا يراعون فيها عهداً ولا ذمة ، فضلاً عما يبتدعونه كل عام من البدع المنكرة ، فضلاً عن تعطيلهم أحكام الدين وحدوده ، يقول :

وَعُظِّلَتِ الْأَحْكَامُ حَتَّى كَانْنَا عَلَى مَلَّةٍ غَيْرِ الَّتِي نَتَنَحَّلُ
فَتَلِكُ مَلُوكُ السُّوءِ قَدْ طَالَ مَلِكُهُمْ فَحَتَّامَ حَتَّامَ الْعِنَاءِ الْمَطُولُ
وَمَا ضَرَبَ الْأَمْثَالَ فِي الْجَوْرِ قَبْلَنَا لِأَجْوَرَ مِنْ حُكَّامِنَا الْمُتَمَثِّلُ

وكان الشيعة في كل مكان : في العراق وخراسان والحجاز يردُّون هذه الأبيات وأمثالها من أشعار الكُميت . وأحسَّ الأمويون واليهيم في العراق يوسف ابن عمر الثَّقَفي خطراً شديداً في أشعار الكُميت ، لأنه لا يدعوا فيها للعلويين فحسب ، بل أيضاً يدعو للثورة على بني أمية ثورة تأتي عليهم وتهمحوهم من الأرض محوًّا . وما زال يوسف الثَّقَفي يطلب من الكُميت غيرة ، حتى تهيأت له قتلته . ويشهد هذا القتل بمدى سيرورة شعر الكُميت لا بين الشيعة فحسب ، بل بين الناس جميعاً وخاصة في العراق . وكان لا يزال يرسل من موطنه في الكوفة إلى أهل خراسان بمدينة مَرَّو بأشعار أشبه ما تكون بمنشورات ثورية .

أما حزب الخوارج فكان ينادى بأن لا تُقَصَّر الخِلافة على قريش بل تُرَدَّ إلى الأمة لتختار بنفسها أكفأ أبنائها ، فتحقق بذلك المساواة ويتحقق العدل الذي حُرِّمت الرعية منه ، إذ يتولاها خير الأمة ورعاً وتقوى ، ولو كان عبداً حبشياً . وذهبوا إلى أن الجماعة الإسلامية برضاها عن الخلفاء الأمويين ضلَّت الطريق ، ولذلك ينبغي قتالها ، ومضوا يجاهدونها بالسيف جهاداً عنيفاً في فارس والعراق واليمامة وعُمان وحضرموت واليمن . وبذلك كان شعرهم شعر ثوارٍ ترافقهم السيوف في غدوِّهم ورواحهم ويسلُّونها صباح مساء . وآمنوا بأن الإسلام يموت في كل مكان إلا في معسكراتهم وبأنه يجب جهاد الأمويين والأمة معهم حتى الموت ، وحتى يفوزوا برضوان الله - في رأيهم - وبثوابه من نعيم الجنان . ومن أجل ذلك نراهم في أشعارهم يطلبون الاستشهاد ويستعذبونه مستبطين له ، حتى يلحقوا بمن سبقهم إلى الفردوس ، مما جعلهم لا يكون قتلاهم ، بل يجحدونهم ، كما جعلهم يزهدون في الدنيا ونعيمها الزائل . ودائماً حماسة وظماً شديداً إلى القتال ، وتهافت عليه ، واستماتة ليس بعدها استماتة ، حتى ليقول قطري قطعهته الحماسية المعروفة مناجياً نفسه :

أقول لها وقد طارت شِعاعاً من الأبطال وَيَحْكُ لِن تُرَاعِي
فإنك لو سألتِ بقاء يومٍ على الأجل الذي لك لن تطاعِي
فصَبْرًا في مجال الموت صَبْرًا فما نيلُ الخلود بمستطاعِ
وما للمرء خيرٌ في حياةٍ إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المتاعِ

وهو يستهين بالحياة فالأمر غاية كل حي ، وما أشبه الحياة بثوب يطوى في أى ساعة ، فحري به وبأمثاله من الخوارج أن يقاتلوا حتى يستشهدوا في سبيل عقيدتهم . وقد ظل ينازل الأمويين وقوادهم في بسالة نادرة . وكانت زوجته أم حكيم لا تقل عنه شجاعة ولا بسالة ، وكانت لا تزال تحارب بجواره وتصول وتجول مرتبجة بمثل قولها :

أحملُ رأساً قد سُمْتُ حَمَلَهُ وقد مَلِئْتُ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ
ألا فَتَى يحملُ عني ثِقَلَهُ

وهي ترى الحياة أمامها مملّة مملّا فظيعةً ، وتتمنى لو استشهدت ، وتشعر كأن رأسها الذي تريد أن يزائل جسدها عبء ثقيل تحمله ، وهي تريد الخلاص منه ، حتى تحظى بالنزول في فراديس الجنان . وهذه البطولة الحارقة للخوارج جعلت الناس يتعلقون بأشعارهم . ونجد عندهم الظاهرة التي لاحظناها في شعر الفتوح ، ونقصد ظاهرة الاضطراب في نسبة مقطوعات الخوارج الشعرية إلى أصحابها . ومن يرجع إلى معركة يوم دولا ب التي انتصر فيها قطرى على بعض الجيوش الأموية والتي رواها أبو الفرج في كتابه الأغاني يجد مقطوعة حماسية لأحد شعرائهم اختلف الرواة في ناظمها ، فقيل هو قَطْرِيّ ، وقيل هو صالح بن عبد الله العَبْشَمِيّ ، وقيل هو عمرو القنّا ، وقيل : بل هو حبيب بن سهم . وكان ناظم المقطوعة لم تعد له أهمية ، إنما الأهمية للمقطوعة نفسها ، فقد تداولها الناس ، وأصبح لها ضرب من الشعبية دون أى عناية بمن صاغها وجرت على لسانه .

وهؤلاء الشعراء جميعاً وأمثالهم من المنتمين للأحزاب السياسية ، كانوا يعيشون لا لنفوسهم وإنما لجماهير أحزابهم ، فعنها يتكلمون ولها ينظمون ، وباسمها يصيحون في وجوه الأحزاب الأخرى ، مجاهدين دائماً بالسنتهم ، ومجاهدين أحياناً مع ألسنتهم بسيوفهم . على نحو ما كان يجاهد الخوارج . وكان يقابل هذه الأحزاب جميعاً حزبُ الدولة وكان جمهور شعرائه ضحماً ، وكانت الدولة تنثر أموالها عليهم نثرًا ، ينثرها الخلفاء والولاة . ويكفي أن نشير إلى ما أخذ جرير من عبد الملك في قصيدته الحائية حين أنشدها بين يديه ، إذ يقال إنه أمر له بمائة ناقة حلّوب وبمائة من الرعاة ، لما عرف من روعة القصيدة وأنها ستذيع على كل لسان لجمال موسيقاها . وكان جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم من شعراء بني أمية أشبه ما يكونون بالصحف في عصرنا أو بوسائل الإعلام ، فهم الذين يسجلون أعمال الدولة ومناقب الخلفاء ويذيعونها في الأمة . ولذلك أجزل لهم الأمويون في العطاء فهم دعائهم في الشعب ، وهم بذلك كانوا شعراء سياسة مثلهم مثل شعراء الأحزاب السابقة . وكانت مدائحهم تذيع في العراق موطن الخصومة لبني أمية ، ولذلك عنوا بتقريبهم منهم . وكان جرير أكثرهم قرباً من الشعب في لغته : وصوّر ذلك ابن سلام حين سأله سائل أى البيتين

في مديح عبد الملك والأمويين أجدود؟ بيت جرير في قصيدته الحادية آتفة الذكر:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحٍ

أم بيت الأخطل:

شُمْسُ الْعِدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَفَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

فقال: بيت جرير أحلى وأسير، وبيت الأخطل أجزل وأرزن. فقال له السائل: صدقت، وهكذا كانا في أنفسهما عند الخاصة والعامة. فشعر جرير كان أكثر سيرورة وانتشاراً من شعر الأخطل في نفوس الناس وعلى ألسنتهم بحمال أنغامه وألحانه.

وبالمثل كان الهجاء يذيع في الناس ويتناقلونه، وحقاً ما قاله الرسول عليه السلام حين استمع إلى هجاء حسان لقريش: إنَّ وَقَعَ هِجَاؤُكَ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ مِنْ وَقَعِ النَّبْلِ. وعلى شاكلة قريش كان العرب جميعاً، وويل لمن كان يعرض له كبار المهجائين في العصر، فقد كانوا ينزلون به أقبح الوصم وأشنع الثلب، فتلوكة الألسنة ويصبح مضغة للأفواه: أفواه الكبار والصغار. ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يروى عن محمد بن حسان بن سعد والي الخراج بالكوفة في هذا العصر، فقد تعرّض له الحكم بن عبيد الله الشاعر الكوفي يسأله أن يضع عن شخص ثلاثين درهماً من خراجه، فردّه مغضباً، وإذا هو يرميه بقصيدة من هجائه اللاذع يقول فيها:

رَأَيْتُ مُحَمَّدًا شَرِّهَا ظَلُومًا وَكُنْتُ أَرَاهُ ذَا وَرَعٍ وَقَصِيدٍ

يقول: أماتني ربّي خِداعاً أمات الله حسان بن سعدٍ

وذاعت القصيدة في كل أركان الكوفة وعلى جميع الألسنة، حتى كان المكارى يسوق بغله أو حماره فيقول: «عدّ: أمات الله حسان بن سعد». وحدث أن خطب محمد بن حسان فتاة من أسرة كريمة هي أسرة قيس بن عاصم أحد سادة تميم في الجاهلية والإسلام، وسمع بذلك ابن عبيد الله، فأفسد الخطبة بأشعار منها قوله:

وما كان حسانُ بن سعدٍ ولا ابنُه أبو المسك من أكفء قيس بن عاصم
خُذِي دِيَّةً مِنْهُ تَكُنْ لَكَ عُدَّةٌ وَجِيئِي إِلَى بَابِ الْأَمِيرِ فَخَاصِمِي

وَأَنْفَسَتِ الْفَتَاةُ أَنْ تَتَزَوَّجَ مُحَمَّدُ بْنُ حَسَانَ مَهْجُورًا ابْنَ عَبَّادٍ ، وَأَنْفَتَ لَهَا
عَشِيرَتُهَا وَرَدَّتْهُ رَدًّا قَبِيحًا . وَفِي ذَلِكَ مَا يَصُورُ - مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ - سَمَدَى تَأْثِيرِ الْمَهْجَاءِ
فِي نَفُوسِ النَّاسِ مِنْ جِهَةِ وَمَدَى انْتِشَارِهِ وَشِيعُوهُ بَيْنَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ مِنْ جِهَةِ ثَانِيَةِ .

وَتَفَرَّعَ حِينْتِذُ مِنَ الْمَهْجَاءِ فَنَّ يُعَدُّ مِنْ أَكْثَرِ الْفُنُونِ الشَّعْرِيَّةِ تَعْقِيدًا ، وَهُوَ
فَنُّ النَّقَائِضِ ، وَكَانَ مَلْهَاءً لِلشَّعْبِ بِالْمَعْنَى الدَّقِيقِ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ ، عَلَى نَحْوِ مَا
تَصُورُ ذَلِكَ نَقَائِضُ جَرِيرِ وَالْفَرَزْدَقِ . وَلَكِنِّي يَتَضَحُّ لَنَا ذَلِكَ لِأَبَدٍ مِنَ الْوُقُوفِ
قَلِيلًا عِنْدَ التَّطَوُّرِ الَّذِي حَدَثَ فِي حَيَاةِ الْعَرَبِ حِينَ نَزَلُوا فِي الْمَدِينَتَيْنِ الْعِرَاقِيَّتَيْنِ
الْكَبِيرَتَيْنِ : الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ اللَّتَيْنِ أَمْرَ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ بِتَأْسِيسِهِمَا أَوْ اخْتِطَاطِهِمَا
لِلْجِيُوشِ الْمَحَارِبَةِ فِي الشَّرْقِ ، فَقَدْ أَخَذَ الْعَرَبُ يَعِيشُونَ فِيهِمَا مَعِيشَةً مَدْنِيَّةً جَدِيدَةً
يَقْدِمُهَا لَهُمُ الْفَرَسُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمَوَالِي ، إِذْ مَلَأَتِ الْفَتْوحُ وَرَوَاتِبُ الدَّوْلَةِ حُجُورَهُمْ
بِالْأَمْوَالِ فَابْتَنَوْا الْقُصُورَ ، وَاتَّخَذُوا الرِّقِيقَ وَالْحَوَارِيَّ ، وَقَامُوا عَلَى خِدْمَتِهِمْ فِي جَمِيعِ
جَوَانِبِ حَيَاتِهِمْ خِدْمَةَ نَقَلْتَهُمْ مِنْ حَيَاةِ الْبَدَاوَةِ الْخَشَنَةِ إِلَى حَيَاةِ الْحَضَارَةِ النَّاعِمَةِ .

وَسَرَعَانَ مَا شَعَرُوا بِالْفَرَاغِ وَالتَّعَطُّلِ عَلَى عَادَةِ سُكَّانِ الْمَدَنِ ، وَهُوَ شَعُورٌ بِؤْهَلٍ
دَائِمًا لِنَشَاطِ الْحَيَاةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْفَنِّيَّةِ ، إِذْ يَضْطَرُّ أَهْلُ الْمَدَنِ بِسَبَبِ الْفَرَاغِ الْمَهَالِ
فِي حَيَاتِهِمْ إِلَى الْعَنَايَةِ بِالثَّقَافَةِ وَبِبَعْضِ ضُرُوبِ الْفَنِ ، حَتَّى يَقْطَعُوا جَوَانِبَ مِنْ
أَوْقَاتِ هَذَا الْفَرَاغِ أَوْ حَتَّى يَمْلِئُوهَا . وَهُوَ مَا حَدَثَ فَعَلًا فِي الْمَدِينَتَيْنِ الْعِرَاقِيَّتَيْنِ
الْكَبِيرَتَيْنِ الْمُنشَأَتَيْنِ ، إِذْ أَخَذَ أَهْلُهُمَا يُعْمَنُونَ بِالدَّرَاسَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالْأَدْبِيَّةِ
وَتَطَلَعُوا - كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ - إِلَى التَّزُودِ بِالثَّقَافَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ . وَبِجَانِبِ ذَلِكَ
أَخَذُوا يُعْمَنُونَ بِفَنِّ جَدِيدٍ يَلْهَوْنَ بِهِ وَيَمْلِئُونَ جَانِبًا مِنْ أَوْقَاتِ الْفَرَاغِ الْمَهَالَةِ الَّتِي
يَشْعُرُ بِهَا أَهْلُ الْمَدَنِ ، وَالَّتِي جَعَلَتْ أَثِينًا قَدِيمًا تُعْنَى بِالْمَسْرُوحِ وَبِالشَّعْرِ قَصْصِيًّا
وَغَنَائِيًّا وَتَمَثِيلِيًّا . وَلَمْ يَكُنْ الْفَنُّ الْجَدِيدُ الَّذِي عُنيَتْ بِهِ الْبَصْرَةُ وَالْكُوفَةُ سِوَى النَّقَائِضِ ،
وَخَاصَّةً عِنْدَ شَاعِرِيهَا الْبَصْرِيِّينَ الْكَبِيرِينَ : جَرِيرِ وَالْفَرَزْدَقِ ، إِذْ اسْتَطَاعَا أَنْ
يَنْفِذَا مِنْ خِلَالِ فَنِّ الْمَهْجَاءِ إِلَى هَذَا الْفَنِ الْحَدِيثِ ، وَأَنْ يَتَطَوَّرَا بِهِ تَطَوُّرًا وَاسِعًا ،
بِحَيْثُ يَصْبِحُ مَادَّةَ حَقِيقِيَّةٍ فِي الْبَصْرَةِ لِلهُوِّ وَالتَّسْلِيَةِ وَقَطْعِ أَوْقَاتِ الْفَرَاغِ . وَبِمَجْرَدِ

أن نعرف أن جريراً التميمي كان يقف في نقائضه أو في أهاجيه مع الفرزدق التميمي ، مدافعاً لا عن قبيلته تميم ، وإنما عن قبيلة مخاصمة لها هي قيس يتضح لنا توّاً أننا لسنا بإزاء فن الهجاء العام وإنما نحن بإزاء فن جديد أقرب إلى أن يكون مناظرة بين الشعارين التميميين ، فالفرزدق يدافع أو يناظر عن تميم ، وجرير يدافع أو يناظر عن قيس ، دفاعاً حاراً لمدة أربعين سنة أو تزيد . وقد اتخذنا من سوق المربد بجوار البصرة مسرحاً لهذه المناظرة الكبيرة فكانا يختلفان إلى هذه السوق ويختلف معهما الناس ، ليسمعوا إليهما وليقطعوا بعض أوقات الفراغ .

وقد يبدو أننا نغلو حين نزعم أن النقائض كانت ملهاة للشعب ، ولكن من يدرسها ويتعقب أخبارها عند جرير والفرزدق وغيرهما من الشعراء الذين كانوا يزاولون هذا الفن يعرف أن جمهور البصرة في سوق المربد وكذلك جمهور الكوفة في سوق الكُناسة كانا يتحلقان حول الشعارين المتناقضين للفرجة عليهما وللهو والتسلية ، ويورد عليهما الشاعران من الهجاء المقذع الساخر ومن الفكاهات اللاذعة ما يجعلهما يغرقان في الضحك . وكثيراً ما يفضى الجمهور إلى التصفيق حين يعجبه بيت عند الشاعر ، وقد يفضى إلى الصفير والصياح . وعلى هذه الشاكلة كانت النقائض فنّاً يراد به تزجية أوقات الفراغ لسكان البصرة والكوفة ، وعلى نحو ما نذهب الآن لدور التمثيل والخيالة نلهو بعض الوقت ، أو كما نذهب إلى ناد رياضي للفرجة على لعبة كرة القدم ورؤية أى الفريقين اللاعين يهزم صاحبه بلعبه المتقن كان أهل البصرة يذهبون إلى المربد للفرجة على لعبة النقائض التي كان يتقاذف سهامها جرير والفرزدق ، والجمهور تارة يشتد صياحه وتهليله واستحسانه ، وتارة ثانية يشتد صفيره واستهجانه . ويلقانا ذلك مراراً وتكراراً في أخبار جرير والفرزدق وفي أخبار غيرهما ممن كانوا يتناقضون . من ذلك ما روى في أخبار أبي النجم والعجاج من أنهما توافقا في المربد يتناقضان ، ومضى أبو النجم ينشد نقيضته في العجاج حتى بلغ إلى قوله : « شيطانه أنثى وشيطاني ذكر » فتعلق الناس بالشرط وتصاحبوا وهرب العجاج خجلاً واستحياء . وفي أخبار جرير خبر طريف يصور مجالس هذه النقائض في المربد وتجمع الناس لسماعها ، وانتظارهم البيت السامّ القاتل ، فقد روى

الرواة أن الراعي شاعر بنى نُمَيْرَ في نجد وفد على سوق المَرَبِد ، فاستمع إلى الفرزدق وجرير ، ولم يلبث أن انحاز إلى أولهما قائلاً :

يا صاحبي دَنَا الرَّوَّاحُ فِيسِيرًا غَلَبَ الْفِرْزَدَقُ فِي الْهَجَاءِ جَرِيرًا

وشاع البيت واستمع إليه جرير ، فغضب غضباً شديداً ، ومضى فنظم نقيضة بائية مريرة في الراعي والفرزدق جميعاً ، وانتظر حتى عرف أن الناس قد جلسوا بمجالسهم بسوق المَرَبِد ، وكان له مجلس فيه وللفرزدق مجلس ، فدعا بدهنٍ (طيب) وجمع شعره ، وضم أطرافه ، وكان حسن الشعر ، ثم قال لغلامه : يا غلام أسْرِجْ (شُدَّ السَّرْجُ) لي فأسرج له حصاناً . ثم قصد مجلس الفرزدق والراعي ، فتوجه إلى الراعي ، يقول له : أبعثك نِسْوَتُكَ تُكْسِبُهُنَّ الْمَالَ بالعراق ، أما والذي نفسُ جرير بيده لترجعنَ إليهنَّ بِمِيسِرٍ (تجارة) يسوءهن ولا يسرهن ، ثم اندفع ، فأنشد قصيدته ، وفيها قال للراعي بيته الذي سقط به وبقبلته بنى نُمَيْرٌ من حائق إلى الخضيض :

فَغُضَّ الطَّرْفَ لِنِكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَلِغْتَ وَلَا كِلَابًا

ونفض الراعي من مجلس الفرزدق يغشاه الصغار والهوان ، وركب توأ إلى منازل قبيلته . بنى نُمَيْرَ في نجد ، وهو يردد : فضحنا والله جرير . وما كان أشد دهشته حين هبط في ديار قومه ، فوجد القصيدة سبقته إليهم ، وسبقه بيتها السالف المذع ، وهم يصيحون به : هذا شوئك . وللخبر دلالات كثيرة ، فهو يدل على أن شاعر النقائض في البصرة كان يحتفل — قبل ذهابه إلى سوق المربد لإنشاد شعره — بثيابه وهيئته وزينته ، وأنه كان له مجلس معروف يجتمع فيه الناس من حوله ، ليستمعوا إلى شعره بين التهليل والتصفيق ، وأيضاً فإن ما كان ينشده من الهجاء كان يذيع لا في البصرة وحدها ، بل أيضاً في نجد . وهو ما يؤكد أن النقائض كانت تحمل من الطوايع الشعبية ما يجعلها تسرى في القبائل العربية سريان البرق ، إذ سرعان ما تحملها الألسنة إلى كل مكان . وكان من أهم ما أتاح لها هذه الطوايع ما كان يودعه فيها الفرزدق وجرير من أبيات لاذعة ، كبيت جرير السالف في بنى نُمَيْرَ والراعي ، ولهما في ذلك طَرْفٌ

كثيرة من مثل قول الفرزدق في جرير :

يُهْدِي الوعيدَ ولا يحوطُ حريمَهُ كالكلبِ يَنْبَحُ من وراء الدَّارِ
وقوله :

أَتَعْدُلُ أَحْسَابًا لثَامًا أَدِقَّةً بِأَحْسَابِنَا إِنِّي إِلَى اللَّهِ رَاجِعٌ

وكان جرير أشد لذعا وإيلاماً في أهاجيه ، وله في الفرزدق أبيات كثيرة يسخر منه فيها سخرية شديدة من مثل قوله الذي لا يزال يدور على الألسنة :

زَعَمَ الْفَرَزْدَقُ أَنَّ سَيَقْتُلُ مِرْبَعًا أَبَشِرُ بِطَوْلِ سَلَامَةٍ يَامِرْبَعُ
وقوله :

وَإِنَّكَ لَوْ تَعَطَى الْفَرَزْدَقَ دَرْهَمًا عَلَى دِينَ نَصْرَانِيَّةٍ لَتَنْصُرَا

وهو يشير بذلك إلى وقوف الفرزدق مع الأخطل النصراني ضده . وكانت بينه وبين الأخطل معارك هجائية حامية الوطيس ، وكان يتفوق عليه في سهام الهجاء اللاسعة لسع الأفاعي كما تفوق على الفرزدق ، إذ كان ينقض عليهما انقضاؤا الطير الجارح على فريسته بأبياته اللاذعة المريعة التي كانت تذيب في الناس ذيوعاً واسعاً . وقد يما شهد له خصماؤه الكبار بذلك ، فقد روى الرواة أن الأخطل اجتمع يوماً مع الفرزدق فقال له : إن جريراً أوثق من سائر الشعر ما لم نُؤْتَهُ ، قلت أنا بيتا ما أعلم أحداً قال أمجى منه ، قلت فيه وفي قومه في وصف شحهم وبخلهم :

قَوْمٌ إِذَا اسْتَنْبَحَ الْأَصْيَافَ كَلَبَهُمْ قَالُوا لِأُمَّهُمْ بُولَى عَلَى النَّارِ

فلم يروه إلا حكماء أهل الشعر ، وقال جرير :

التَّغْلِيُّ إِذَا تَنْبَحَ لِلْقِرَى حَكَ أَسْتَهُ وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَالَا

فلم تبق سقاة ولا أمثالها إلا رَوَّه . فشعره ، وخاصة هجاءه ، كان أكثر سيرورة من شعر صاحبيه بشهادتهما . ومما يصور ذلك من بعض الوجوه أنه كان يتناقض مع عمر بن لحيان شاعر تميم ، فعلا عليه ، وهزمه هزيمة مرة ، لما كان

يرميه به من سهام قاتلة ، من مثل قوله فيه وفي قومه :

قومٌ إذا حَضَرَ الملوكَ وفودُهُم نَتَيْتَ شواربُهُم على الأبوابِ

وإذا كان شعر النقائص بقصائده الطويلة المعقدة اتخذ صورة شعبية في العصر الأموي فإن شعر الغزل والحب في الحجاز ومدينتيه الكبيرتين : مكة والمدينة كان أولى منه بذلك للملاسته القلوب وترجمته عن مشاعر إنسانية أكثر عمقا واتساعاً وتأثيراً في الناس . وقد كثر ناظموه في المدينتين وفي مقدمتهم عمر بن أبي ربيعة والعرجي وابن قيس الرقيسات في مكة والأحوص في المدينة ، وورى الناس هناك يُشغفون به شغفاً شديداً ، يُشغَفُ به الشباب والشيوخ والنساء والرجال ، حتى النساك والفقهاء سُغفوا به ، ففي أخبار عبد الله بن عباس المفسر المشهور للقرآن الكريم أنه كان يوماً في المسجد الحرام بمكة وعنده نافع بن الأزرق وبعض أصحابه من الخوارج في العراق يسألونه إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبوغين مورّهين حتى دخل وجلس ، فتعرّض له ابن عباس يسأله أن ينشده بعض ما نظمه من غزل ، فأنشده قصيدته :

أَمِنَ آلَ نَعْمٍ أَنْتَ غَايَ فَمُبَكِّرُ غَدَاةِ غَدِ أُمِّ رَائِحٍ فَمُهَجَّرُ

حتى أتى على آخرها ، فأقبل ابن الأزرق على ابن عباس ، فقال : الله يابن عباس ! إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد ، نسألك عن الحلال والحرام ، فتنشأقل عنا ، ويأتيك غلام مترف من مترفي قريش فينشذك قصيدة يقول فيها :

رَأْتُ رَجُلًا أَمَا إِذَا الشَّمْسُ عَارِضَتْ فَيَحْزَى وَأَمَا بِالْعِشِيِّ فَيَحْصِرُ

وكان نافع قد حَرَفَ البيت ، فقال له ابن عباس : ليس هكذا قال ، فقال نافع : فكيف قال ؟ فقال ابن عباس : قال :

رَأْتُ رَجُلًا أَمَا إِذَا الشَّمْسُ عَارِضَتْ فَيَضْحَى وَأَمَا بِالْعِشِيِّ فَيَحْصِرُ

ويضحى : يذفا . ويحصر : يبرد . فقال له ابن الأزرق : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ، قال ابن عباس : أجل وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك

لماها ، قال ابن الأزرق : فإني أشاء ، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها ،
ثم أقبل على عمر بن أبي ربيعة ، فقال له أنشد ، فأنشده :

تَشُطُّ غدا دارُ جيراننا وللدَّارُ بعد غدٍ أبعدُ

وكان ابن عباس بعد ذلك كثيراً ما يقول لتلاميذه وأصحابه : هل أحدث
ابن أبي ربيعة شيئاً . وإذا كان ابن عباس مع وقاره ومنزاته في الدراسات الدينية
ومجلسه في حلقاته بين سائليه من فقهاء الخوارج وغيرهم من تلاميذه يتركهم
ليستمع إلى ما أحدث ابن أبي ربيعة من غزل ، ولا يكتفي بسماعه ، بل يديره
في نفسه ويستظهره ، فغيره من أهل مكة وشبابها كان أكثر منه إعجاباً وتعلقاً
بغزل ابن أبي ربيعة وما ينظم في الحب ووقائعه . وكان من وراء ابن عباس من
نُسِّك مكة والمدينة من يُشغَفُونَ مثله بهذا الغزل ، فن ذلك ما يُروى عن
أبي السائب المخزومي ناسك المدينة المشهور ، الذي كان يصلى في كل يوم وليلة ألف
ركعة ، من أنه مضى متزها مع بعض أصحابه إلى العقيق في ضواحي المدينة ،
وحدث أن أنشده أحدهم قول العَرَجِيِّ :

باتا بأنعم ليلَةٍ حتى بدا صُبْحُ تَلوَحَ كالأغرِّ الأشقرِّ
فتلازما عند الفراق صبايَةَ أَخَذَ الغريمَ بفضلِ ثوبِ المُعسِرِ

وتلازما : اعتنقا . والغريم : الدائن . وصاح أبو السائب بالمنشد أن يعيد
البيتين ، وأقسم أن لا ينطق بحرف غيرهما حتى يرجع إلى داره . ولقيه عبد الله بن
الحسن ، فسلم ، ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال له :

فتلازما عند الفراق صبايَةَ أَخَذَ الغريمَ بفضلِ ثوبِ المُعسِرِ

فالتفت عبد الله إلى رفيق لأبي السائب ، فقال له : متى أنكرت صاحبك ؟
فقال : منذ الليلة ، فقال إنا لله ، وأى كهل أصيبت منه قريش ! ثم مضى
أبو السائب ورفيقه ، فلقِيهما محمد بن عمران قاضي المدينة ، فسلم ، ثم قال :
كيف أنت يا أبا السائب ، فقال :

فتلازما عند الفراق صبايَةَ أَخَذَ الغريمَ بفضلِ ثوبِ المُعسِرِ

فالتفت محمد بن عمران إلى رفيقه ، فقال له : متى أنكرت صاحبك ؟ فقال : آنفا . ولما أراد الانصراف قال له رفيق أبي السائب أفدعه هكذا ؟ والله ما آمن أن يسقط في بعض آبار العقيق قال : صدقت ، يا غلام هات قيد البغلة ، فأخذ القيد ووضع في رجله ، وهو ينشد البيت ويشير بيده إليه ، يُريه أنه يفهم قصته . ثم نزل القاضي وقال لغلامه . احمله على بغلتى وألحقته بأهله . وإذا كان أبو السائب على نسكه وتقواه يطرب للغزل هذا الطرب الشديد ، فغيره من الفتيان والشباب كان يطرب طربا أشد حين يستمع إلى غزل العرّاجي وغيره من شعراء مكة والمدينة . ولعل ذلك ما جعل نُسَّاك المدينتين وفقهاءهما يسهمون فيه على نحو ما نجد عند عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَةَ أحد فقهاء المدينة السبعة الذين كانت تُشَدُّ إليهم الرحال من أقاصى العالم الإسلامى للفتيا في الفقه ومسائل الدين ، فقد روى الرواة أنه تزوج امرأة ثم انفصل عنها ، وكان يحبها حبًّا شديداً ، وازداد به الحب بعد الانفصال ، واستحال ذلك على لسانه غزلا رقيقا ، روى منه أبو الفرج في ترجمته له - بكتابه الأغاني - أطرافا تصور لواعج شوقه وآلامه . ويلقانا فقيه ثان في المدينة هو عروة بن أذينة ، ولم يكن يكتب بالنظم في الحب والغزل ، بل كان يضيف إلى ذلك عناية بالغناء والضرب على الآلات الموسيقية ، مما صَفَّى ألفاظه صفاء شديداً ، على نحو ما يلاحظ في مقطوعته البديعة :

| | |
|------------------------------|--|
| إن التي زعمت فوآذك ملها | جُعِلَتْ هَوَاك كما جُعِلَتْ هَوَى لها |
| فِيكَ الذي زعمت بها وكلا كما | يُبْدِي لصاحبه الصباية كلها |
| بيضاء باكرها النعيم فصاغها | بلباقه فآدقها وأجلها |
| لما عرضت مسلما ، لي حاجة | أرجو معونتها وأخشى ذلها |
| منعت تحيتها فقلت لصاحبي | ما كان أكثرها لنا وأقلها |

واشتهر ناسك من نُسَّاك مكة وقُرَّائها هو عبد الرحمن بن أبي عمَّار الحُشَمِيّ بمانظم من غزل كثير ، وكان يلقَّب بالثَّقْس لنسكه وعبادته ، واتفق أن اشترى سلامة المغنية مكى ثرى هو سهيل بن عبد الرحمن ، وأحضرها معه من المدينة ،

وأخذت تواصل الغناء في داره ، فسمعها القس ذات مرة ، فهام بها ، واشتهر أمره ، فغلب عليها لقبه ، وسُميت سلامة القس ، ومضى ينظم فيها غزله الذى عُرِف به من مثل قوله :

سَلَامٌ هل لى منكمُ ناصرُ أم هل لقلبي عنكمُ زاجرُ
قد سمع الناسُ بوجدى بكم فمنهم اللائمُ والعاذرُ

وصورة هذا الغزل عند نُسَاك المدينتين الكبيرتين في الحجاز وفقهاتهما هي صورته في نجد ، فهو غزل عذرى عفيف على شاكلة غزل مجنون ليلى وجميل صاحب بثينة ، وغيرهما من شعراء نجد الذين يكتنظ غزلهم باللهفة على لقاء المحبوبة والظماً ظمما شديداً إلى هذا اللقاء ظمماً لا يروى أبداً ، وكأن محبوبه الشاعر ملاك سماوى ، فهو ما يزال يناجيهما في لوعة شديدة . وكان الناس والمغنون والمغنيات في المدينة ومكة يتعلقون بهذا الغزل التَّجْدَى ويروونه ويرددونه صباح مساء ، هو وما شاع معه من قصص طريف يحكى هذا الحب البدوى وقائعه وأواعجه وما يحمله من وجد يصور هذا الغرام الجامح الذى يستأثر بقلب المحب وحسه وشعوره وأهوائه وعواطفه . واقرأ في شعر جميل صاحبُ بثينة فستجد حرقه القواد التى يكتبون بها كيباً ، وستجده موجع القلب مسلوب العقل باكى العين بكاء لا ينقطع :

وما ذكرتك النفسُ يا بئسَ مرَّةً من الدهرِ إلا كادت النفسُ تتلفُ
وإلا اعترتني زفرةٌ واستكانةٌ وجادَ لها دَلْوٌ من الدَّمعِ يذرفُ

فهو يتوجع ويئن ويذرف الدمع مدراراً لذكرى صاحبه وحرمانه من لقائها ورؤية وجهها ، إلا ما بقى له من ذكرى وداعها الباكى ذات يوم ، وهى تبكى معه متأثرة :

كلانا بكى أو كاد يبكى صبايةً إلى إلقه واستعجلت عبرةً قبلى
ولو تركتُ عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى
فيا ويح نفسى حسبُ نفسى الذى بها ويا ويح أهلى ما أصيب به أهلى

فهو يذكر بكاءهما معا ، والدموع تسيل على خد صاحبه ، مفضية إلى

الحزن والأسى ، أما هو فأفضى إلى حشرات متواليه ، فقد سلبته عقله . وإنه
ليأسى على نفسه ، بل أيضاً على أهلها لما أصابهم فيه ، وإنه ليتحرَّق شوقاً إليها
متمنياً دائماً لقاءها الذى لا تعدل فرحته أى فرحة فى دنياه . بل هو كل
دنياه وكل فرحته ومسرته :

وهل أَلْقَيْنَ فَرْدًا بُشِينَةً مَرَّةً تجودُ لنا من وُدِّها ونجودُ
علقتُ الهوى منها وأيداً فلم يزل إلى اليوم يَنْجِي حُبُّها ويزيدُ
إذا قلتُ ما بي يا بُشِينَةُ قاتلي من الحب قالت ثابتٌ ويزيدُ
وإن قلتُ رُدِّي بعضَ عقلي أعش به مع الناس قالتُ ذاك منك بعيدُ

فقد نشأ حبها معه ، وخالط منه القلب حتى الشغاف ، وكل يوم يتمنى لقاءها ،
ويتنظر وعدها ، وحبها ينمو ، بل يتقد فى قلبه ، ولا وعد يتحقق ولا لقاء يحدث ،
وهو يتعذب ويشقى بنيران الحب وآلامه ، حتى ليحس أنه قتيل عشقها وأن عقله
فارقه ، وهى لا تنيله أى شىء :

وإني لأرضى من بشينة بالذى لو ابصرتُ الواشى لقرتُ بلابله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أوأخسره لا نلتنى وأوائله

حتى رَفِضَ اللقاء يكفيه منها لأنه سيراها . وإنه ليمضى فى آمال محففة راضياً
بما يجنيه فى تلك الآمال من متعة ذكرها والتفكير فيها . ويمضى العام والأعوام
لا يلتفتيان ، وقلبه يخفق بحبها وذكرها محفورة فى فؤاده . وكان أشدَّ منه صباية
وهياماً بصاحبه قيس " العامرى : مجنون ليلى التى شغفت قلبه حباً منذ صباها الباكر :

تعلقتُ ليلى وهى ذات ذؤابةٍ ولم يَبْدُ للأتراب من ثدنها حَجْمُ
صغيرين نرعى البهْمَ ياليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهْمُ

فقد استأثرت ليلى بكل أحاسيس قيس ومشاعره منذ أن كانا صبيين يرعيان
الغنم ، ويعبان بالرمل عبث الأطفال تارة ، وتارة ثانية يتحدثان أحاديث الصبا ،
وقد علقت بفؤاده ، ويكبران ، فتُحجَّبُ عنه وتُسَدُّلُ بينه وبينها الأستار ويظل

يتعذب ويشقى بحبها العنيف :

وأدنبيني حتى إذا ما سببيني بقولٍ يُجِلُّ العُصْمَ سهلاً الأباطح
تناهيت عنى حيناً لا لي حيلةً وخلفت ماخلفت بين الجوانح

والعصم: العول الوحشية الجبلية . فهو يذكر حديثها الخلاب الذي يأسر قلبه ، وكأنما كان شاباً كما مدتھا لظائر ، حتى إذا علق بها تركته يتعذب كما لم يتعذب أحد ، وكل يوم يزداد تعلقاً بها ، ويزداد استمساكاً بحبها ، حباً راسخاً ثابتاً :

لقد رسخت في القلب منك محبةً كما رسخت في الرَّاحَتَيْنِ الأصابعُ

ويعظم كلفه بها ، ويصبح حبه محنة لا تنصرف عنها نفسه ولا يتخاص منها قلبه ، ويجن جنون العاشق الولهان . ويختلط عقله ويترك الطعام والشراب ، ويطلق عليه أهل حيه اسم المجنون ، إذ لا يزال يهذى بليلي وحب ليلي ، وينشد :

يسمونني المجنون حين يرونني نعم بي من ليل الغداة جنونُ

وتأسى له أمه - كما يقول الرواة . فتمضى إلى ليلي ، فتقول لها إن قيساً قد ذهب حبك بعقله ، فلوجتته وقتنا ، لعله يثوب إليه بعض عقله . وترق له ليلي ، وتلم به ، وتتوسل إليه أن يفرق بنفسه ، وتنبئه بما يقوله الناس عنه من أنه جن من أجلها ، وتقول له : اتق الله وأبق على نفسك ، فيبكي ، وينشد :

قالت جننت على ليلي فقلت لها الحب أعظم ممّا بالمجانين
الحب ليس يُفنيق الدهرَ صاحبه وإنما يُصرع المجنون في الحين

وتتزوج ليلي ، ويتحول حب المجنون إلى ما يشبه حربة لا يزال يكتوى بجمراته ونيرانه ، ولا يزال يلذع فؤاده ، وهو في أثناء ذلك ينظم أجمل وأروع ما عرف العرب من شعر الحب الطاهر النقي الذي يخلو من شوائب الغريزة النوعية ، متغلفاً في وصف اللوعة والوجد الذي لا يدانيه وجد . فليلي ملاكته السماوي ، وهي بعيدة وراء سحب صفيقة ، وهو يتغنى باسمها ويصيح ولا سميع ولا مجيب ، ويهيم في الأودية والشعاب والجلال مترنماً باسمها ، وكأنما يبحث عنها عبثاً في كل مكان :

وما أشرف الأيفاع إلا صبايةً ولا أنشد الأشعار إلا تداويا
وهو بين الجنون والصحو والموت والحياة ، يعيش في يأس وعلاب يتجرعهما ،
وهو مسحور بها ، وليس ما يرقيه منها أو يشفيه من حبها ، سوى هذه الأشعار التي
كان ينظمها فيها ، فبتخاطفها أهل البيد والحاضرة من حوله ، ويتناشدونها في
مجالسهم ويتداولونها فيما بينهم ، محاولين أن يستظهروها لروعتها البيانية . ويصور
ذلك ما يروى عن الناسك أبي السائب المخزومي الذي مر بنا ذكره من انه استمع
من منشد إلى قول مجنون ليلى :

تعلق رُوحى روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المهدي
فزاد كما زدنا وأصبح نامياً وليس إذا متنا بمنقضى العهد
ولكنه باقى على كل حادثٍ وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد

فحلف لا يزال يقعد ويقوم حتى يحفظها . وذكر ابن عبد ربه صاحب كتاب
العقد الفريد أنه خرج يوماً هو وابن أبي عتيق حفيد أبي بكر الصديق ينتزهان ،
فرمى أبو السائب بقلنسوته ، فقال له ابن أبي عتيق : ما فعات قلنسوتك ، فقال
له : ذكرت قول قيس بن ذريح صاحب لُبتي :

أرى الإزار على لُبتي فأحسده إن الإزار على ما صمَّ محسودُ

فتصدقتُ بها على الشيطان الذى أجرى هذا البيت على لسانه ، فرمى ابن أبي
عتيق بدوره قلنسوته إعجاباً بالبيت وطرباً به . وعلى هذا النحو كان أهل مكة
والمدينة يروون أشعار العذريين من أهل نجد ويديرونها بينهم ، ويجعلونها طُرقاً
أحاديثهم ومجالسهم ، هى وما طُوى فيها من قصص ، وهو قصص "حملته العصور
هو وما تضمنته من أشعار على نحو ما هو معروف عن قصص مجنون ليلى ، مما جعله
يأخذ طابعاً شعبياً إذ تداولته العصور والألسنة فى أجيال متعاقبة حتى اليوم .

وكان يختلف عن هذا الغزل العذرى فى بوادى نجد والحجاز اختلافاً جوهرياً
الغزل عند شباب المدينتين الكبيرتين : مكة والمدينة ، وهو شباب مترف ، لم يكن
يعرف العذاب والألم فى الحب ، فحبه حب متحضرين ، وكأنه فن أو لون من

ألوان الحضارة والترف . وخير من يمثل هذا الغزل ابن أبي ربيعة وعلى شاكلته رفاقه من شعراء مكة والمدينة الذين أترفهم الحضارة الأجنبية الداخلة حديثا في مواطنهم : أترفت أذواقهما ومشاعرهما ، كما أترفت ذوق الفتيات والنساء المواطنات لهم . وينبغي أن نفرق بين هذا النوع من الغزل المادى الصريح الناشئ عن الترف وبين الغزل الجسدى الذى تمليه الغريزة النوعية والذى يشترك فيه الحيوان والإنسان . وبدون ريب لم تعرف المدينتان المقلستان فى العصر الأموى هذا النوع من الغزل ، إنما عرفت الغزل المترف الذى يصوره غزل عمر بن أبى ربيعة فى مثل قوله :

ليت هندا أنجزتنا ما تعدُّ وشفت أنفسنا مما تجدُّ
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبدُّ
ولقد قالت لجارات لها ذات يومٍ وتعرت تبتردُّ
أكما ينعتنى تبصرنى عمركن الله أم لا يقتصد
فتضحكن وقد قلن لها حسن في كل عين من تودُّ
حسدا حملنه من أجلها وقديما كان فى الناس الحسد

وعمر لا يصور ألما فى الحب ولا عذابا ولا وجداً ، فحبه لا يكاد يتصل بنفسه ولا بفزاده ، وصاحبه أيضا لا تصور فى حديثها حبا ، إنما تصور طرفا من هواجسها ويصور النساء من حولها غيرتهن منها وحسدهن لها . ولئلك مظهر واضح فى غزل عمر ، فهو ضرب من الشوق ، وهى المنزلة التى يتمنى فيها الإنسان أن يلقى الآخر ، ليتمتع بلقائه ، أو بحبه ، ولكن دون أن يبلغ منزلة الحب العذرى ، وبحكى عمر لنا هذا الحب ، لا عنده غالبا وإنما عند الفتيات والنساء ، إذ يعرضون تائقات له مشوقات إلى لقائه ، على نحو ما نرى فى قوله :

قالت على رغبة يوما لجارتها ماتأمرين فإن القلب قد شغلا
وهل لى اليوم من أخت مؤاخية منكن أشكو إليها بعض ما فعلا
فراجعتها حصان غير فاحشة برجع قولى ولب لم يكن خطلا

لا تذكرى حبه حتى أراجمه إني سأكفيكه - إن لم أمت - عَجَلًا
فاقتنى حياءك في سترٍ وفي كرمٍ فلست أول أنثى علقت رجلاً

وقد عبرت صاحبته بدقة عن حبها ، فهو ليس حباً حقيقياً ، وإنما هو انشغال للقلب وشوق وتوق إلى لقاء عمر والاستماع إلى ما يقول فيها من أشعار وغزل . ويعرض عمر هذا الشوق الحضري أو الحب المتحضر إن صح هذا التعبير ، فعمر منصرف عن صاحبته ، وهي تبحث عن أخت مخلصه تشكو إليها انصرافه وشوقها إليه ، وتمنيها بأنها ستتوسط لها عنده ، وتوصيها بالتأني والتزام الحياء والخفر ، فكثيرات غيرها يتشوقنَ ، ولكن يبسقين لأنفسهن على الصيانة ، ونقرأ عنده :

قالت ليربٍ لها تُحَدِّثُهَا لِنَفْسِ دَنِّ الطَّوْفِ فِي عُمْرِ
قوى تصدئ له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أخت في خفري
قالت لها قد غمزته فأبى ثم استمرت نسعى على أثري

وليس في هذه الأبيات حب ولا ما يشبه الحب ، وإنما فيها شوق إلى اللقاء ، وغمز وئز وإشارات بالأعين ، تعلن عن الشوق دون تعبير عن شعور يتصل بالنفس أو القلب ، فلا شعور من هذا القبيل ، وإنما هو ضرب من الإعجاب بعمر على نحو ما كانت تعجب به هؤلاء الفتيات الثلاث :

قالت الكُبْرَى أتعرفن الفتى قالت الوُسْطَى نعم هذا عُمْرُ
قالت الصُّغْرَى وقد تيممتها قد عرفناه وهل يخفى القمْرُ

فالفتيات معجبات به أو هكذا يخدع نفسه عمر ، غروراً منه ، أو لكي يشبع غروره ، حتى يكبر أمام نفسه وأمام الناس إن هم صدقوه ، وصدقوا أن للنساء دائماً نائقات له ، وما يزلن يرسلن إليه الرسول تلو الرسول ، يرضينه ، ويطلبن منه موعداً يضر به لهن :

إن هنداً قد أرسلت وأخو الشوق مرسلاً
أرسلت تستحني وتُقْدِي وتَقْدُلُ

فهو يتمنّع ، ومن سمّاها هندا تتوق إليه وتشتاق وتأمل لقاءه . وكل ذلك غزل مترف متحضر ، ليس كغزل البوادي العفيف الذي قرأناه عند مجنون ليلي وجميل صاحب بثينة ، غزل يصور الشوق إلى لذات اللقاء وما يمر منه بخواطر المرأة ، كما يصور غرور الرجال وما قد يمر منه بخواطرهم من إعجاب بأنفسهم . وهو نمط آخر غير نمط الحب العذري الذي مرّ بنا والذي كان أصحابه يصطلون بناه المحرقة ويتعذبون عذابا لا حد له ، نمط الحب الحضري المتكلف الذي يمس القلب من بعيد إن صح أنه يمس أحيانا .

وطابع شعبية كثيرة تلاحظ على هذا الغزل جميعه ، الغزل المتحضر ، والغزل العذري ، إذ أصبح في جمهوره مقطوعات حتى يسهل حفظه ونقله ، وقد تطول المقطوعة منه ، ولكنها لا تسرف في الطول ، حتى لا تصبح قصيدة بالمعنى المألوف ، وإنما تصبح مقطوعة طويلة تستهلُّ بالحب وتمضى فيه حتى نهايتها ، فهى مهما طالّت ليست قصيدة متنوعة الموضوعات . وقد اختفى من هذا الغزل ، أو كاد ، بكاء الأطلال وذكر آثار الديار ، وخاصة عند شعراء مكة والمدينة ، إذ لم تكن حياة الشعراء في البلدين المذكورتين تعتمد على الارتحال من موضع إلى موضع في البادية ، كما كان الشأن عند الجاهليين ، بل كانت تعتمد على الاستقرار والإقامة ، فلم يعد الشاعر يحس حاجة حقيقية إلى التغنى بالرسوم والأطلال الدائرة وبأحبابه اللائى طال عهد لقائه بهن في أيام الصبا والشباب إذ أصبح يلتقى من شغفن قلبه حبا ويسمر معهن من حين إلى حين . ومن تمام الشعبية في غزل العصر جميعه لغته السهلة اليسيرة ، كما مر بنا ، فهو لا يصاغ في عبارات جزلة ضخمة ولا في ألفاظ أبدة غريبة ، إنما يصاغ في ألفاظ عادية مألوفة وفي عبارات عذبة رشيقة ، فداًئماً لغته كأنها من نفس لغتنا المألوفة التي نستخدمها اليوم أو قل كأنها من نفس الأحاديث للشعبية اليومية التي كان يتخاطب بها الناس في المدينة ومكة وبوادي نجد والحجاز ، لغة خالية من أى عسر ومن أى تعقيد، لغة لا تكاد تسمعها الجماهير حتى تدور في أفواهاها وعلى ألسنتها . وطبيعى أن تتسع هذه الظاهرة عند شعراء مكة والمدينة ، لأن المجتمع فيهما كانت قد دخلته عناصر أجنبية كثيرة ، وليس ذلك فحسب ، فإن هذه العناصر استطاعت أن تستحدث للغناء العربي نظرية جديدة ، هى النظرية التي

نقروها في كتاب الأغاني حين يعقب أبو الفرج على الصوت الذي يذكره بقوله :
ثقل أول أو خفيف الثقل أو رمل إلى غير ذلك من مصطلحات غنائية . وكانوا
يعنون في هذه النظرية ما ينظم شعراء مكة والمدينة من غزل ، فكان لابد أن يلاحظهم
الشعراء وأن لا يرتفعوا بلغتهم عن مستوى لغة الحياة العاملة ، حتى يفهموا عنهم
ويتقنوا ما يصنعون من ألحان لمقطوعاتهم الغزلية ، مما جعلهم يشتقون لهم لغة الغزل
من نفس محيطهم اليومي وما يسمعون فيه من ألفاظ شفوية .

وقد أصبح المثل الأعلى عند شعراء الغزل في مكة والمدينة أن يلائموا بين موسيقى
أشعارهم وأوزانها وبين نظرية الغناء الجديدة ، وكان أول ما حاولوه من ذلك أن تكون
أوزانهم سهلة خفيفة ، وأعل هذا هو السبب الحقيقي في أن تكثر عند ابن أبي ربيعة الأرمال
والأهزاج ، وعدل الشعراء معه إلى الأوزان الخفيفة الأخرى من مثل السريع والخفيف
والمتقرب والوافر . أما الأوزان الطويلة المعقدة فقد غيروا كثيرا في مدح حركاتها ورفع
الصوت بها ، وفي تقصيرها وإتاحة الهمس لها ، عن طريق ما سماه أصحاب علم
العروض فيما بعد باسم الزحافات والعلل . ولم يكتف ابن أبي ربيعة ونظراؤه بذلك ، فقد
مضوا يكثر من تجزئة الأوزان المعقدة مثل الكامل والبسيط والرجز ، بل لقد أكثروا
من تجزئة الأوزان الخفيفة مثل الرمل والخفيف والمتقارب حتى يتبحروا للمغنين والمغنيات
الفرصة كاملة كي يلائموا بين أشعارهم والألحان التي يريدون أن يوقعوها معها على
آلاتهم وطبولهم الموسيقية وبذلك يستطيعون أن يطيلوا مادين ، أو يقصروا هامسين ،
في أنفاسهم وألحانهم ، كما يستطيعون أن يرتفعوا بأصواتهم ويجهروا بها ماشاءت لهم
إراداتهم الفنية من الجهر ، أو ينخفضوا بها ماشاءت لهم تلك الإيرادات من الانخفاض
والهمس ، حسب حاجاتهم اللحنية والنغمية .

ولعلنا لانغلو إذا قلنا إن أهل مكة والمدينة جميعا عاشوا في هذا العصر لسماع
شعر الغزل والغناء فيه ، أو بعبارة أخرى لسماع الموسيقى والطرب حتى صدق فيهم
قول بعض معاصريهم : « إذا أعجزك أن تملك إعجاب القرشي فغنه في الغزل
فإنك ترقصه » . ويخيل إلى الإنسان كأنما استحالت حياة الناس كلها هناك طرباً
وغناء ، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان حجَّ
في موكب ضخم ، وكان من عادته أن ينثر الأموال في حجه على سكان المدينتين

المقدستين الكبيرتين ، فلما نزل المدينة مع موكبه لم يجد أحداً في استقباله واستقبال أمواله الطائفة ، فسأل عن الناس ، فقالوا لأنهم بدار عبد الله بن جعفر يستمعون إلى بعض المغنين . واشتهرت المدينة حينئذ بدار جميلة ، وكانت تضارع المسارح الكبيرة في عصرنا . وكانت مخصصة للغناء ، ويدل وصفه في كتاب الأغاني أنه كان تارة منفرداً ، وتارة ثانية كان يُصْحَبُ بِمِجْرَقَةٍ ، وتارة ثالثة كان يرافقه الرقص . وتخرج في هذه الدار عشرات من المغنين والمغنيات . وكان يقابلها في مكة دور غناء كبرى لأمثال ابن سُرَيْجٍ والغرييض .

وعمل هؤلاء المغنون الكثيرون على نشر أغاني الغزل الصريح والعدوى ، فقد أضافوا إليها ألحانا خلبت ألباب الناس ، وجعلتهم يحفظونها ويتداولونها على ألسنتهم . ولا تكاد تجد في هذا العصر قطعة بديعة في الغزل إلا وقد دونها المغنون والمغنيات في صناديق أنغامهم ، سواء من كان منهم في مكة أو في المدينة . ودائماً كان المكيون يرحلون إلى المدينة ، وتقصد المغنين ، ليستمعوا إلى ما يغتنى فيها بدار جميلة أو دار مَعْبُد ذائع الصيت وأضرابه ، وبالمثل كان مغنّو المدينة يرحلون إلى مكة ليستمعوا إلى ما أحدث ابن مُحْرَزٍ وابن سُرَيْجٍ وأمثالهما من ألحان بديعة . وكان الشعراء يصنعون صنيعهم ، فشعراء مكة من أمثال ابن أبي ربيعة يرحلون إلى المدينة ليعرضوا على كبار المغنين والمغنيات فيها أشعارهم ، ليلحنوها لهم ، حتى تذيب على الأفواه ، وبالمثل كان شعراء المدينة يرحلون إلى مكة ليعرضوا على مغنّياتها وأشعارهم ، وليستمعوا إلى تلاحينهم فيها . وأعطى ذلك كله شعر الغزل في المدينتين فرصة كى يسجّل في صناديق المغنين والمغنيات وكى يذيع وينتشر في الناس . وكان ينزل من المغنين كثرون في الطائف وخاصة في أيام الصيف المحرقة ، وكان نفر منهم ينزل في وادي القرى شمالي المدينة مثل عمر الوادى ، ويُرْوَى أنه سمع أغنية من أغاني الحب يغنيها بعض البدو ، فأعجب بها إعجاباً لاحد له ، وأخذها عنه ، وكان يقول : أنه لم يترنم بها وهو جائع إلا شبع ، ولم يتغن بها وهو كسلان إلا نشط ، ولم يلحنها وهو مستوحش إلا أنس . وكان الحجاز جميعه بمواضره وبواديه كان يتناقل هذه الأغاني وما تحمل من غزل .

ولم يقف انتشار أغاني الحب الحجازية والنجدية عند هذا الحد ، فقد مضت

تنتشر في الشام عن طريق من كان يستقبلهم الخلفاء من المغنين ، فسيُحج مغنى مكة وُبدَيْحُ مغنى المدينة يستقبلهما عبد الملك ، ويستقبل ابنه الوليد ابن سُريج المكي ، وبمجرد أن جلس يزيد بن عبدالمك على عرش الخلافة أرسل في طلب المغنين من المدينة ، ووفد عليه منهم معبد ومالك الطائي وابن عائشة ، وعقد لهم حفلات كبيرة في قصره . ومعروف أنه اشترى من مغنيات الحجاز أحلاهن صوتا : سلامة القس وحبابة . وخلفه ابنه الوليد فحوّل قصر الخلافة إلى مقصف لمغنى الحجاز ، وهو يعد رمزا كبيرا لتأثير الغزل الحجازي وأغانيه في الأقاليم العربية ، فقد تحول ينظم على مثاله أشعارا كثيرة . ولم يقف نشر المغنين والمغنيات لأغاني الحب عند الشام ، فقد حملوه إلى أنحاء كثيرة ، مثل الغريضة مغنى مكة ، فإنه نزل اليمن ونشر بها أغانيه ، ونزل الأبحر زميله مصر وصدح فيها بأغانيه . واشتهرت العراق في أواخر العصر بدار ابن رامين في الكوفة ومغنياتا المدنيات اللاتي تخرجن في دار جميلة مثل سلامة الزرقاء وسعدة وربيعة ، وكن مقدمة لنهضة الغناء وأغانيه في العصر العباسي .

وما عمل على انتشار الأغاني الحجازية والنجدية وذيوعها ذيوعا واسعا الحجاج الذين كانوا يفلتون على مكة والمدينة من أطراف العالم الاسلامي ، فكان بعضهم يختلف إلى دور المغنين . وكان المغنون يتعرضون للناس وهم يؤدون مناسكهم ، من ذلك ما رواه أبو الفرج في كتاب الأغاني عن ابن سُريج من أنه تغنى عند بستان ابن عامر بمكة ، فتزاحم الحجاج يستمعون إليه ، لا يتحركون ، حتى ناداه رجل قائلا : يا هذا قد حبست الحجاج والوقت ضاق فاتق الله واتركهم ، فتركهم ، وسار الناس . وسمعه يزيد بن عبد المالك في بعض المواسم ، فأعطاه جائزة ثمينة . وكان يرافق الحجاج أحيانا في قوافلهم بعض المغنين . إما في ترحالهم بين المدينة ومكة ، وإما فيما هو أبعد من ذلك ، واشتهر أحد أصحاب القوافل وهو دَحْمَان من مغنى المدينة بأنه كان يغنى في قوافله هو وبعض الجوارى ، ويقال إن الوليد بن يزيد استمع إلى جارية في إحدى قوافله ، فأعجبته واشتراها بعشرة آلاف دينار .

وكل ذلك عمل على ذيوع شعر الغزل في العصر وانتشاره ، كما عمل على حفظه ، إذ ظلت أكثر الأغاني تُلحَن حقبًا متعاقبة ، بحيث استطاع المؤلفون للأغاني والحانها في العصر العباسي أن يسجلوا من أفواه المغنين والمغنيات في عصرهم أكثر ما تغنى به

أسلافهم في العصر الأموي . وتشيع مع ذلك ظاهرة ثانية هي أن الأغنية التي لُحنت في العصر الأموي كانت كثيراً ما يُعاد تلحينها في العصر العباسي ، إذ يعيد تلحينها كبارُ المغنين والمغنيات فيه ، بل نستطيع أن نقول إن ذلك نفسه كان يحدث في العصر الأموي عند معنى البلدين المقدستين ومغنياتها ، فالمقطوعة الغزلية الواحدة تغنى في مكة ثم تغنى في المدينة أو العكس . وليس ذلك فحسب ، فقد يشترك في غنائها وتلحينها أكثر من مغن من بلدة واحدة . وكل ذلك عمل على اتساع نشرها وذبوعها . ومن أطرف ما يدل على ذلك دلالة واضحة مقطوعة عمر بن أبي ربيعة التي أنشدها لابن عباس أمام زواره من الخوارج والتي أنشدنا منها بيتاً فيما أسلفنا ، وهي تمضى على هذا النحو :

تَشْطُ غَدًا دَارُ جِيرَانِنَا وَلِلدَّارِ بَعْدَ غَدٍ أَبْعَدُ
أَتْنُنَا تَهَادَى عَلَى رِقْبَةٍ مِنَ الْخَوْفِ أَحْشَاوْهَا تُرْعَدُ
تَقُولُ وَتُظْهِرُ وَجْدًا بِنَا وَوَجْدِي - وَإِنْ أَظْهَرْتُ - أَوْجَدُ

ويذكر أبو الفرج إزاء المقطوعة أنها لُحنت مراراً في العصرين الأموي والعباسي ، ويقول إن الذي أحصى فيها إلى وقته تسعة عشر لحناً ، ويذكر ممن غنى فيها من المكيين ابن مِسْجَح وابن سُرَيْج ومن المدنيين معبدًا والأبجر ومالك الطائي ويونس ، وكل هؤلاء من كبار المغنين المعاصرين لابن أبي ربيعة في العصر الأموي . ومن غنى فيها من العباسيين ابن جامع والحشاشي وابن المكي وإسحق الموصلي وعُكَيْة بنت المهدي . وليس من شك في أن هذه التلاحين جميعاً أتاحت لمقطوعة ابن أبي ربيعة أن تحفظ من عصر إلى عصر وأن تُتداول في أوسع نطاق . ومثلها المقطوعات والأغاني الكثيرة الأخرى له ولشعراء مكة والمدينة وشعراء البوادي في نجد والحجاز تلك التي تغنى لهم فيها كبار المغنين والمغنيات في عصرهم ، وظلت تنتقل من جيل إلى جيل حتى دَوَّنَهَا أبو الفرج في أغانيه .

وبين أيدينا أخبار كثيرة عن مدى تأثير الناس بأغاني الحب في العصر ، حتى ليروى أن تاجرًا من أهل الكوفة قدم المدينة ومعه خُمْرٌ (جمع خِمَار) مختلفة الألوان فباعها كلها إلا ذات اللون الأسود إذ لم تُقبل امرأة على الشراء منها . وكان

صديقا لمغن بالمدينة يسمى الدارمي، فشكا ذلك إليه، وكان الدارمي شاعراً . فقال له :
لا تهتم ولا تفكر، فإنني سأروِّج لك تلك الحُمر، ولم يلبث أن نظم أبياتا يقول فيها:

قُلْ للمليحة في الخِمار الأسودِ ماذا صنعتِ براهبٍ متعبِدٍ
قد كان شمراً للصلاة ثيابهُ حتى وقفت له بباب المسجد

وتغنى في الأبيات وشاعت في الناس، فلم تبق في المدينة ظريفة إلا اشترت خمراً
أسود، حتى نفذ ما كان مع التاجر الكوفي من الحمر السوداء . وما يدل بوضوح على
مدى إحساس الناس في العصر بانتشار الغزل وذيوه الواسع أن السيدات والفتيات
الناهيات في المدينتين الحجازيتين كن يتعلقن به لا بسماعه فحسب، بل أيضا بذكرهن
فيه، وفي مقدمتهن الثريا بنت علي بن عبد الله الأموية في مكة وعائشة بنت طلحة
في المدينة، فقد كن جميعا لا يحدن حرجاً في أن يذكرن على ألسنة الشعراء من
أمثال ابن أبي ربيعة، لأن في ذلك تنويهاً بجمالهن، ستناشده البيد والحواضر،
ومعروف أن النساء يعجبهن الثناء من قديم . وكأنما كان الغزل في مكة والمدينة حينئذ
أشبه بمجلاتنا وصحفنا، فكما أن المرأة الحديثة لا تشعر بحرج في أن تظهر
صورتها في صحيفة يومية أو في مجلة أسبوعية، فكذلك كان الغزل الذي يتغنى فيه
المغنون والمغنيات بالحجاز صحفاً سيارة تظهر فيها - دون أي حرج - صور المرأة
في المدينتين . وكانت هذه الصحف الحجازية القديمة تدخل كل بيت ترافقها
الأصوات المطربة، وحتى شريفات بني أمية وغيرهن كن يطلبن أن تظهر صورهن
في تلك الصحف، من ذلك ما رواه صاحب الأغاني من أن أم محمد بنت الخليفة
مروان بن الحكم أرسلت إلى عمر بن أبي ربيعة ألف دينار، كي يذكرها في غزله،
حتى يغير اسمها على الأفواه، وروى أيضا أن أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك
طلبت - حين حجت - إلى الشعراء أن ينظموا فيها بعض الشعر فتشجعت طائفة
منهم ونظمت وجبسنَّت طائفة أخرى، فاكتفت بالنظم في بعض جواربها .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور بوضوح الطوايع الشعبية في غزل هذا العصر
وهي طوايع امتدت كما رأينا إلى موضوعات الشعر الأخرى، فليس هناك شعر إلا
وتسوده . ومن تنمة ذلك أننا نجد كثيرين من الموالى في كل بلد عربي يتخذون الشعر
لساناً لهم يؤدون به عن ذات أنفسهم وعن إحساساتهم ومشاعرهم، ونبغت منهم

طائفة ترجم لها أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني ترجمات ضافية مثل إسماعيل ابن يسار النَّسائي وإخوته في المدينة وأبي العباس الأعمى في مكة وزيادة الأعمى مولى قبيلة عبد القيس ويزيد بن مفرغ مولى اليمانية في البصرة . وجمعت منهم طائفة بين إتقان الشعر وإتقان الغناء مثل أبي سعيد مولى فائد وسلامه القس الجارية المشهورة ولها غزل رقيق . وينشد الجاحظ في رسالته « فخر السودان على البيضان » أشعاراً كثيرة للرفيق السوداني والإفريقي حيثنذ من أمثال الحيقطان وسنبيخ يفتخرون فيها بأصولهم السودانية والإفريقية مدافعين عن سواد بشرتهم ومعتزين ببعض خيالهم ، من مثل قول الحيقطان :

لئن كنتُ جَعَدَ الرَّأْسِ وَالجِلْدُ فَاحِمٌ فَإِنِّي لَسَبْتُ الكَفَّ وَالعِرْضُ أَزْهَرُ
وإن سوادَ اللونِ ليس بضائري إذا كنت يومَ الرُّوعِ بِالسيفِ أَخْطَرُ

والأزهر : النقي . وفي كتاب الأغاني ترجمة طويلة لنصيب الشاعر الحجازي ، وكان ابن نوبيين ، فابتاعه عبد العزيز بن مروان والى مصر لأخيه عبد الملك وأعتقه . وكان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يجزّل له في العطاء ، وأنكر عليه بعض جلسائه ذلك يوماً ، قائلاً : أعطى هذا العبد الأسود هذه العطايا الوافرة ؟ فقال للائم : والله لئن كان أسود إن شاء لأبيض وإن شعره لعربي ، ولنصيب أشعار كثيرة يدافع فيها عن سواده بمثل قوله :

فإن يكُ من لوفى السوادُ فإنى لكالمسك لايروى من المسك ذائقة

ونشأت حينئذ في الكوفة طبقة بائسة فقيرة ، وهي توجد في المدن دائماً لكثرة المطالب اليومية فيها للحياة والمعيشة وكان الحكم بن عابد الشاعر الذي مر بنا ذكره بصورّ بؤس هذه الطبقة ، عن طريق تصويره لتعاسته وشظف عيشه وكثرة ما يملأ بيته من العناكب والحشرات والجرذان . وكل ذلك معناه أن الشعر في العصر الإسلامي كان الأداة العامة للتعبير عن الحياة الشعبية وأحاسيس الناس رجالاً ونساءً ورفيقاً وأحراراً ، وبعبارة أخرى كان الصحيفة الشعبية المتداولة في كل الأوساط وكل البيئات بين العرب والمستعربين جميعاً .